إن المستعاذ به هوالله ، والمستعاذ منه هو الشيطان ، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي ، فهو يدخل مع المخلوق في عراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك ، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أي يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنها « الخناس » ، إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيدا عن الله ، ولذلك فالحق يُعَلِّمُ الإنسان :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ ﴾

(سورة الأعراف)

إن الشيطان يرتعد فرقا ورعشة من الإستعاذة بالله . وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة ؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله إلى المعاصي . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجيء الرجل امرأته ، ومجيء الأهل هو مظنة لمولود قد يجيء ، فيقول العبد : « اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني » (من دعاء رسول الله) .

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التخلق ، فلن يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذي يأتي بإذن الله . ولذلك قالت إمرأة عمران : « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » . والذرية قد يفهمها الناس على أنها النسل المتكاثر ، ولكن كلمة « ذرية » تطلق على الواحد وعلى الاثنين ، وعلى الثلاثة أو أكثر . والذرية هنا بالنسبة لمريم عليها السلام هي عيسى عليه السلام ، وتنتهي المسألة . وبعد دعاء إمرأة عمران « وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » يجيء القول الحق :

فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا
وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ

عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ
عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

وقد عرفنا القبول الحسن والإنبات الحسن ، أما قوله الحق : « وكفلها زكريا »
فهذا يعنى أن المسألة جاءت من أعلى ، إنه الرب الذى تقبل بقبول حسن ، وهو
الذى أنبتها نباتا حسنا . إذن ، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله . والدليل
على ما حدث عند كفالة مريم . لقد اجتمع كبار القوم رغبة فى كفالتها وأجروا بينهم
قرعة من أجل ذلك . وساعة تجد قرعة ، أو إسهاما . فالناس تكون قد خرجت من
مراداتها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نختلف على شىء فإننا نجرى قرعة ،
ويخصص سهم لكل مشترك فيها ، ونرى بعد ذلك من الذى يخرج سهمه ، ويلجأ
الناس لهذاالأمر ، ليمنعوا هوى البشر عن التدخل فى الاختيار ، ويصبح الأمر
خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما حدث عند كفالة زكريا
لمريم . ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

إذن فالكفالة لمريم أخذت لها ضجة ، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء
قرعة بالنسبة لكفالتها ، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد
حدث تنازع بينهم ، عن أيهم يكفل مريم ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام
كان متزوجا من « إشاع » ، « أخت » « حنة » وهى أم مريم ، فهو زوج خالتها .

وكلمة « أقلامهم » قال فيها المفسرون : إنها القداح التى كانوا يصنعونها قديما ،
أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة ، فرموها فى البحر ، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية
مريم ، ومن غرق قلمه فى البحر فهو الذى فاز بكفالة مريم . إذن فهم قد خرجوا

عن مراداتهم إلى مراد الله .

والخروج عن المرادات ، والخروج عن الأهواء بجسم ليس له اختيار - كقداح القرعة - لا يوجد فى النفس غضاضة . لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغصب فلابد أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة أو الغضب . ولذلك فقد كان سائدا فى ذلك العصر عملية إجراء السهام إذا ما خافوا أن يقع الظلم على أحد أو أن يساء الظن بأحد ، وهناك قصة سيدنا يونس عندما قاربت السفينة على الغرق ، وكان لابد لإنقاذها أن ينزل واحد إلى البحر ، وجاء القول الحكيم :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ
الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ
(١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾

سورة الصافات)

كان لابد أن ينزل واحد من تلك السفينة ، لذلك تم إجراء قرعة بالسهام حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة ، وحتى لا تكون الغلبة للأقوياء ، ولكن القرعة حمت الناس من ظلم بعضهم بعضا . قالوا : لنجر قرعة السهام ، فمن يخرج سهمه فهو الذى يلقى به ، وكان على يونس عليه السلام أن ينزل إلى اليم فيلتقمه الحوت . ولأنه من المسبحين فإن الله ينقذه . لقد قبل يونس عليه السلام اختيار الله ولم ينس تسبيح الله فكان فى ذلك الإنقاذ له . وهكذا نقرأ قول الله لنفهم أن كفالة زكريا كانت باختيار الله . « فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا » .

وكلمة « كفلها » أى تولى كل مهمة تربيتها ، هذه هى الكفالة ، ونحن نعرف أن الكفيل فى عرفنا هو الضامن ، والضامن هو من يسد القرض عندما يعجز الإنسان عن السداد ، وقوله الحق : « وكفلها زكريّا » يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا عليه

السلام هو الذى قام برعاية شئون مريم .

ويتابع الحق الكريم قوله : « كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا » إنه لم يدخل مرة واحدة ، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة . وكان زكريا عليه السلام كلما دخل على مريم يجد عندها الرزق ، ولذلك كان لابد أن يتساءل عن مصدر هذا الرزق ، ولابد أن يكون تساؤله معبرا عن الدهشة ، لذلك يجىء القول الحق على لسان زكريا : « أنَّى لك هذا » .

وساعة أن تسمع « أنى لك هذا ؟ » فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس على المكان الذى توجد به مريم ، وإلا لظن أن هناك أحدا قد دخل على مريم ، وكما يقولون : فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب . وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الرزق .

والرزق هو ما ينتفع به ـ بالبناء للمجهول ـ وعندما يقول زكريا عليه السلام : « أنَّى لك هذا » . فلنا أن نتذكر ما قلناه سابقا من أن أى إنسان وكله الله على جماعة ويرى عندهم ما هو أزيد من الطاقة أو حدود الدخل ، فلابد أن يسأل كُلًّا منهم : من أين لك هذا ؟ ذلك أن فساد البيوت والمجتمعات إنما يأتى من عدم الاهتمام بالسؤال وضرورة الحصول على إجابة على السؤال المحدد : من أين لك هذا ؟

إن الذى يدخل بيته ويجد ابنته ترتدى فستانا مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة ، أو يجد ابنه قد اشترى شيئا ليس فى طاقة الأسرة أن تشتريه ، هنا يجب أن يتوقف الأب أوالولى ليسأل : من أين لك هذا ؟ إن فى ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الانهيار أو التحلل . فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون فى كفالته ـ « من أين لك هذا ؟ » لعرف كل تفاصيل حركتهم ، لكن لو ترك الحبل على الغارب لفسد الأمر .

وقول زكريا : « أنَّى لك هذا ؟ » هو سؤال محدد عن مصدر هذا الرزق ، ولننظر إلى إجابتها : « قالت هو من عند الله » ثم لا تدع البديهة الإيمانية عند سيدنا زكريا دون أن تذكره انها لا تنسى حقيقة واضحة فى بؤرة شعور كل مؤمن : « إن الله يرزق

من يشاء بغير حساب » وأثارت هذه المسألة فى نفس زكريا نوازع شتى ، إنها مسألة غير عادية ، لقد أخبرته مريم أن الرزق الذى عندها هومن عند الله الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله هو القادر على أن يقول : « كن » فيكون .

وهنا ذكر زكريا نفسه ، وكأن نفسه قد حدثته : « إذا كانت للقدرة طلاقة فى أن تفعل بلا أسباب ، وتعطى من غير حساب ، فأنا أريد ولدا يخلفنى ، رغم أننى على كبر ورغم بلوغى من السن عتيًا ، وامرأتى عاقر . إن مسألة الرزق الذى وجده زكريا كلما دخل على مريم هى التى نبهت زكريا إلى ما يتمنى ويرغب .

ونحن نعلم أن المعلومات التى تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة ، ولكن لا يستقر فى بؤرة الشعور إلا الذى يصر عليه الإنسان ، وهناك فرق بين معلومات توجد فى بؤرة الشعور . ومعلومات فى حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم ، فلما وجد زكريا الرزق المنوع عند مريم وقالت له عن مصدره : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . هنا تساءل زكريا : كيف فاتنى هذا الأمر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا :

﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾

إنها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب ، هنا أيقظت فيه القضية الإيمانية فجاءت أمنيته إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، ومادام قد قال هذا القول فلابد أنه قد صدق مريم فى قضيتها ، بأن هذا الرزق الذى يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر فى التصديق ، هو أنه لابد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التى توجد عند مريم ليست فى بيئته ، أو ليست فى أوانها ؛ وكل ذلك فى المحراب .

ونحن نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت العبادة . يقول الحق :

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

أو « المحراب » وهو مكان الإمام فى المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها بسلم ، كالمبلغات التى تقام فى بعض المساجد . ومادامت مريم قد أخبرت زكريا وهى فى المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية فى بؤرة شعوره ، فماذا يكون تصرفه ؟ هنا دعا زكريا أثناء وجوده فى المحراب . « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » إنه هنا يطلب الولد . ولكن لابد لنا أن نلاحظ ما يلى :

ـ هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو « عزوة » أو ذكرا ؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر زكريا الذرية الطيبة تفيد معرفته أن هنالك ذرية غير طيبة . وفى قول زكريا الذى أورده الحق :

﴿ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾

(من الآية ٦ سورة مريم)

أى أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المناهج وإرث القيم ، هكذا طلب زكريا الولد . لقد طلبه لمهام كبيرة ، وقول زكريا : « رب هب » تعنى أنه استعطاء شيء بلا مقابل ، إنه يعترف . أنا ليس لى المؤهلات التى تجعل لى ولدا ، لأنى كبير السن وامرأتى عاقر ، إذن فعطاؤك يارب لى هو هبة وليس حقا ، وحتى الذى يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلابد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة ، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هى التى تعطى الذرية ، إن الحق سبحانه ينبهنا ألا نقع فى خديعة وغش أنفسنا بالأسباب .

﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ

﴿لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ
إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾

(سورة الشورى)

إن فى ذلك لفتا واضحا وتحذيراً محدداً ألا نفتتن بالأسباب ، إذن فلكل عطاء من الله هو هبة ، والأسباب لا تعطى أحدا ما يريد . إن زكريا يقول : « رب هب لى من لدنك » وساعة أن تقول من : « لدنك » فهو يعنى « هب لى من وراء أسبابك » . لماذا ؟ لأن الكل من الله .

ولكن هناك فرقا بين عطاء الله بسبب ، كأن يذهب إنسان ليتعلم العلم ويمكث عشرين عاما ليتعلم ، وهناك إنسان يفيض الله عليه بموهبة ما ، ولذلك يقول أهل الإشراقات : إنه علم لدنى ، أى من غير تعب ، وساعة أن نسمع « من لدن » أى انعزلت الأسباب ، كان دعاء زكريا هو « رب هب لى من لدنك » وكلمة « هب » توضح ما جاء فى سورة مريم من قول زكريا :

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَـٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ
عِتِيًّا ۝٨﴾

(سورة مريم)

إن « هب » هى التى توضح لنا هذه المعانى ، هذا كان دعاء زكريا : « رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء » فهل المراد أن يسمع الله الدعاء ؟ أم أن يجيب الله الدعاء ؟ إنه يضع كل أمله فى الله ، وكأنه يقول : إنك يارب من فور أن تسمعنى ستجيبنى إلى طلبى بطلاقة قدرتك . لماذا ؟ لأنك يارب تعلم صدق نيتى فى أننى أريد الغلام لا لشىء من أموركقرة العين ، والذكر ، والعز ، وغيرها ، إنما أريد الولد ليكون وارثا لى فى حمل منهجك فى الأرض ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

هل كل الملائكة اجتمعوا أو نادوا زكريا ؟ لا ، لأن جبريل عليه السلام الذى ناداه . ولماذا جاء القول الحق هنا بأن الملائكة هى التى نادته ؟ لقد جاء هذا القول الحق لنفطن إلى شىء هو ، أن الصوت فى الحدث - كالإنسان - له جهة يأتى منها ، أما الصوت القادم من الملأ الأعلى فلا يعرف الإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتى من كل الجهات ، وكأن هناك ملكا فى كل مكان .

والعصر الحديث الذى نعيشه قد ارتقى فى الصوتيات ووصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادرا على جعل المؤثر الصوتى يحيط بالإنسان من جهات متعددة ، إذن فقوله الحق : « فنادته الملائكة » فهذا يعنى أن الصوت قد جاء لزكريا من جميع الجهات .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

لقد نادته الملائكة فى أورع لقاءاته مع ربه ، أو هو حينما دعا أخذ ما علمه الله للأنبياء إذا حزبهم أمر قاموا إلى الصلاة . أليس طلبه من الله ؟ إذن فليقف بين يدى الله . وليجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أى شىء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأسباب ، فليقم ويتوضأ وضوءا جديدا ويبدأه بالنية حتى ولو كان متوضئا . وليقف بين يدى الله ، وليقل - إنه أمر يارب عزّ علىّ فى أسبابك ، وليصل بخشوع ، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلم من هذه الصلاة إلاّ ويكون الفرج قد جاء . ألم نتلق عن رسول الله هذا السلوك البديع ؟ إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة ؟

ومعنى حزبه أمر ، أى أن أسبابه ضاقت ، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب ، إنها ذهاب إلى المسبب . وبدلا من أن تلف وتدور حول نفسك ، اذهب إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك أيها العبد ولك رب حكيم ؟ وقديما قلنا : إن من له أب لا يحمل هما ، والذى له رب أليس أولى بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله فى الأمر الذى حزبه ، وبمجرد أن دعا فى الأمر الذى حزبه ، قام إلى الصلاة ، فنادته الملائكة ، وهو قائم يصلى ، إن الملائكة لم تنتظر إلى أن ينتهى من صلاته ، « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك » .

والبشارة هى إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت البشارة بخير زمنه لم يأت فلنر من الذى يخبر بالبشارة ؟ أمن يقدر على إيجاده أم من لا يقدر ؟ فإذا كان الله هو الذى يبشر ، فهو الذى يقدر ، لذلك فالمبشر به قادم لا محالة ، «إن الله يبشرك بيحيى» لقد قال له الله : سأعطيك . وزيادة على العطاء سماه الله بـ « يحيى » وفوق كل ذلك : « مصدقا بكلمة من الله » .

ولننظر إلى دقة الحق حين يقول : « بيحيى مصدقا » . هذا دليل على أنه سيعيش بمنهج الله وما يعرفه من الطاعات سيسير فى هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سيأتى بكلمة من الله ، أو هو يأتى ليصدق بكلمة من الله ، لأن سيدنا يحيى هو أول من آمن برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق : « وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » . أى ممنوعا عن كل ما حُرم عليه ، أو ممنوعا عن قمة الغرائز وهى الشهوة ، وهو نبىّ ، أى قدوة فى اتباع الرسول الذى يجىء فى عصره ، لقد دعا زكريا ، وقام ليصلى ، وتلقى البشارة بيحيى ، وهنا ارتجت الأمور على بشرية زكريا ، ويصوره الحق بقوله :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ ﴾

إن زكريا ـ وهو الطالب ـ يصيبه التعجب من الإستجابة فيتساءل . كيف يكون ذلك ؟ والحق يورد ذلك ليعلمنا أن النفس البشرية دائما تكون فى دائرات التلوين ، وليست فى دائرات التمكين . وذلك ليعطى الله لخلقه الذين لا يهتدون إلى الصراط المستقيم الأسوة فى أنه إذا ما حدث له ابتلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : « أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وإمرأتى عاقر » .

إن بلوغ الكبر ليس دليلا على أنه عاجز عن الإنجاب لأنه قد يكون كبير العمر ، وقادرا على إخصاب امرأة ، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرا عسيرا مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقرا ، ولكن المرأة هى العنصر المهم ، فإن كانت عاقرا ، فذلك قمة العجز فى الأسباب . ولو أن زكريا قال فقط : « وامرأتى عاقر » لكان أمرا غير مستحب بالنسبة لزوجته ، ولكان معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهى غير القادرة .

إنه أدب النبوة وهو أدب عال ، لذلك أوردها من أولها : « وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » ولنر دقة القول فى : « بلغنى الكبر » ، إنه لم يقل : « بلغت الكبر » بل يقول : إن الكبر هو الذى جاءنى ولم أجىء أنا إلى الكبر . لأن بلوغ الشىء يعنى أن هناك إحساسا ورغبة فى أن تذهب إليه ، وذكر زكريا « وامرأتى عاقر » هو تضخيم لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة ، لقد أورد كل الخوالج البشرية ، وبعد ذلك يأتى القول الفصل : « قال كذلك الله يفعل ما يشاء » إنها طلاقة القدرة التى فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب . ويقول زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٤١﴾ ﴾

إن زكريا يطلب علامة على أن القول قد انتقل إلى فعل .

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾

(سورة مريم)

لقد كان هذا القول تأكيدا لاشك فيه ، فبمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر . فماذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أى علامة على أن يحيى قد تم إيجاده فى رحم أمه ، ومادامت المرأة قد كبرت فهى قد انقطع عنها الحيض ، ولابد أنه عرف الآية لأنه يعرف مسبقا أنها عاقر . لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه لحظة من لحظات هبات الله عليه ، ومادام الحمل قد حدث فهنا كانت استغاثة زكريا ، لا تتركنى يارب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسة ، لأننى أريد أن أعيش من أول نعمتك علىّ فى إطار الشكر لك على النعمة ، فبمجرد أن يحدث الإخصاب لابد أن أحيا فى نطاق الشكر ؛ لأن النعمة قد تأتى وأنا غير شاكر .

إنه يطلب آية ليعيش فى نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك ـ معاذ الله ـ فى قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها إلا ومعها الشكر عليها ، والذى يعطينا هذا المعنى هو القول الحق : « قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار » . لابد أن معناها أنه يرغب فى الكلام فلا يستطيع .

إن هناك فارقا بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام . ومادامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذى قال له : سأمنعك من أن تتكلم ، فساعة أن تجد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة ، وستعرف أن تتكلم مع الناس رمزا ، أى بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن الله علم عن عبده أنه لا يريد أن تمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها ، فإننا نعلم أن الله سينطقه . . « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشىّ والإبكار » .

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا ، وجعل كل وقته ذكرا ، فلم ينشغل بالناس أو بكلام الناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه ـ سبحانه ـ عن زكريا عندما طلب الآية ليصحبها دائما بشكر الله عليها ، إن قوله :

« واذكر ربك كثيرا » تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس ، وكأن الله يريد أن يقول له : مادمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس لكنك قادر على الذكر .

والذكر مطلقا هو ذكر الله بآلائه وعظمته وقدرته وصفات الكمال له ، والتسبيح هو التنزيه لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواه ، فسبحان الله ، معناها تنزيه لله ، لأنه القادر على أن يفعل ما لاتفعله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصنعه . إنه يريد أن يشكر الحق الذى يرزق من يشاء بغير حساب . تلك اللفتة . . التى جاءت من قبل من مريم لزكريا .

وزكريا كما نعلم هو الكفيل لها ، فكونها تنطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد لها بالرزق ، يجيئها من غير زكريا ، بأنها ستأتى بشىء من غير أسباب . وكأن التجربة قد أراد الله أن تكون من ذاتها لذاتها ، لأنها ستتعرض لشىء يتعلق بعرض المرأة ، فلابد أن تعلم مسبقا أن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب . فإن جاءت بولد بدون سبب من أبوة فلتعلم أن الله يرزق من يشاء بغير حساب .

فلما سمع زكريا منها ذلك قال : مادام الله يرزق من غير حساب ويأتى بالأشياء بلا أسباب فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتى عاقر ، فلماذا لا أطلب من ربى أن يهبنى غلاما ؟ إذن فمقولة مريم : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » قد لفتت زكريا ، ونبهت إيمانا موجودا فى أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت إيمانا جديداً لزكريا بأن الله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولكنها أخرجت القضية الإيمانية من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا : مادام الأمر كذلك . . فأنا أسأل الله أن يهبنى غلاما . . وقول زكريا : « هب لى من لدنك ذرية طيبة » دل على أنه وزوجته لا يملكان اكتساب الأبوة والأمومة ولذلك طلب الهبة من الله . والهبة شىء بدون مقابل .

فلما سأل الله ذلك استجاب الله له ، وقال له سبحانه : سأهبك غلاما بدون أسباب من خصوبتك فى التلقيح أو خصوبة الزوجة فى الحمل ، ومادامت المسألة ستكون بلا أسباب وأنا ـ الخالق ـ سأتولى الإيجاب بـ « كن » ولمعنى سام شريف سأمنحكم شيئا آخر تقومون به أنتم معشر الآباء والأمهات ـ عادة ـ إنه تسمية

المولود ، فأفاض الحق عليهم نعمة أخرى وهى تسمية المولود بعد أن وهبه لهما . . هنا وقفة عند الهبة بالاسم .

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

حين يولد للناس ولد فهم يسمونه ، فالتسمية أمر شائع فى عادات الناس . ولكن من يهمهم أمر الوليد حينما يقبلون على تسميته ؛ فهم يحاولون أن يتفاءلوا ؛ فيسموه اسما يرجون أن يتحقق فى المسمى ، فيسمونه « سعيدا » أملا فى أن يكون سعيدا ، أو يسمونه « فضلا » أو يسمونه « كريما » . إنهم يأتون بالاسم الذى يحبون أن يجدوا وليدهم على صفته ، وذلك هو الأمل منهم ، ولكن أتأتى المقادير على وفق الأمال ؟

قد يسمونه سعيدا ، ولا يكون سعيدا . ويسمونه فضلا ، ولا يكون فضلا . ويسمونه عزا ، ولا يكون عزا . ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وتعالى ؟ لابد أن يختلف الموقف تماما . فإذا قال اسمه « يحيى » دل على أنه سيعيش . وقديما قال الشاعر حينما تفاءل بتسمية ابنه يحيى :

فسميته يحيا ليحيا
فلم يكن لرد قضاء الله فيه سبيل

كان الشاعر قد سمى ابنه يحيى أملا أن يحيا ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فمات الابن . لماذا ؟ لأن المسمىٰ من البشر ليس هو الذى يُحيى ، إن المسمى إنسان قدرته عاجزة ، ولكن « المحيى » له طلاقة القدرة ، فحين يسمى من له طلاقة القدرة على إرادة أن يحيا فلابد من أن يحيا حياة متميزة ؟ وحتى لا تفهم أن الحياة التى أشار الله إليها بقوله : « اسمه يحيى » بأنها الحياة المعروفة للبشر عادة ـ لأن الرجل حينما يسمى ابنه « يحيى » يأمل أن يحيا الابن متوسط الأعمار ، كما يحيا الناس ستين عاما ، أو سبعين ، أو أى عدد من السنوات مكتوبة له فى الأزل .

لكن الله حينما يسمى « يحيى » فانه لا يأخذ « يحيى » على قدر ما يأخذه الناس ،

بل لابد أن يعطيه أطول من حدود أعمار الناس ، ويهيىء له الحق من خصومه ومن أعدائه من يقتله ليكون شهيدا ، وهو بالشهادة يصير حيا ، فكأنه يحيا دائما ، فالشهداء أحياء عند ربهم يرزقون .

وهكذا أراد الله ليحيى عليه السلام أن يحيا كحياة الناس ، ويحيا حياة أطول من حياة الناس إلى أن تقوم الساعة ، وأيضا نأخذ ملحظا فى أن زكريا حينما بُشر بأن الله سيهبه غلاما ويسميه يحيى ، نجده قد استقبلها بالعجب . كيف يستقبل زكريا مسألة الرزق بالولد متعجبا مع أنه رآها فى الرزق الذى كان يجده عند مريم ؟ « يرزق من يشاء بغير حساب » .

ولنا أن نقول : أكنت تحب أن يمر مثل هذا الأمر الخارق للعادة والخارق للناموس على سيدنا زكريا كأنه أمر عادى لا يندهش له ولا يتعجب ؟ لا ، لابد أن يندهش ويتعجب لذلك قال : « ربِ أنّى يكون لى غلام » . فكأن الدهشة لفتته إلى أنه ستأتى آية عجيبة ، ولو لم تكن تلك الدهشة لكانت المسألة رتيبة وكأنها أمر عادى . إذن ، فهو يلفتنا إلى الأمر العجيب الذى خصه الله به . وأيضا جاءت المسألة على خلاف ناموس التكاثر والإنجاب والنسل : « وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » .

إن المسألة كلها تفضل وهبة من الله . فلما جاءته البشارة ، لم يقل الله له : إننى سأهبك الغلام واسمه يحيى من امرأتك هذه ، أو وأنت على حالتك هذه . فيتشكك ويتردد ويقول : أترى يأتى الغلام الذى اسمه « يحيى » منى وأنا على هذه الحالة ، امرأتى عاقر وأنا قد بلغت هذا الكبر ، أو ربما ردنا الله شبابا حتى نستطيع الإنجاب ، أو تأتى امرأة أخرى فأتزوجها وأنجب .

إذن فالعجب فى الهيئة التى سيصير عليها الإنجاب فقوله : « أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر » هذا التساؤل من زكريا يهدف به إلى معرفة الهيئة أو الحالة التى سيأتى بها الإنجاب ، لأن الإنجاب يأتى على حالات متعددة . فلما أكد الله ذلك قال : « كذلك » ماذا تعنى كذلك ؟ إنها تعنى أن الإنجاب سيأتى منك ومن زوجك وأنتما على حالكما ، أنت قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأتك عاقر . لأن العجيبة تتحقق بذلك ، أكان من المعقول أن يردهما الله شبابا حتى يساعداه أن يهبهما الولد ؟ لا . لذلك قال الحق : « كذلك الله يفعل ما يشاء » . أى كما أنتما ، وعلى حالتكما .

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام فى نظر الناس مرضا لا ، إنه ليس كذلك ، لأن الحق يقول له : « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشيّ والإبكار » إن الحق يجعل زكريا قادرا على التسبيح ، وغير قادر على الكلام . وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان الواحد ، غير قادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا اللسان نفسه - أيضا - يصبح قادرا فقط على التسبيح ، وذكر الله بالعشيّ والإبكار ، ذكر الله باللسان وسيسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

وبعد ذلك ينتقل بنا الحق إلى مسألة أخرى تتعلق بمريم ، لأن مريم هى الأصل فى الكلام ، فالرزق الذى كان يأتيها من الله بغير حساب هو الذى نبه سيدنا زكريا إلى طلب الولد،وجاء الحق لنا بقصة زكريا والولد،ثم عاد إلى قصة مريم :

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ الْعَٰلَمِينَ ۝٤٢ ﴾

« وإذ قالت الملائكة » المراد بها جبريل عليه السلام ، والسبب فى أن الحق يورد ذلك بـ« قالت الملائكة » لأن كلام المتكلم - أى الإنسان - له - كما قلنا - زاوية انطلاق يأتى من جهتها الصوت . وتستطيع أن تتأكد من ذلك عندما يجىء لك صوت ، فأنت تجد ميل أذنك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمنى فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تلتفت إلى الشمال . لكن المتكلم هنا هو جبريل عليه السلام ، ويأتى صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا ، لهذا جاء الكلام منسوبا إلى الملائكة .

فماذا قال جبريل ؟ قال جبريل مبلغا عن رب العزة : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » وما الاصطفاء ؟ إن الاصطفاء اختيار واجتباء ، وهو مأخوذ

من الصفو أو الصافى ، أى الشىء الخالص من الكدر . وعادة تؤخذ المعانى من المحسات ، وعندما تقول الماء الصافى أى الماء غير المكدر ، أو كما يقول الحق :

﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾

(من الآية ١٥ من سورة محمد)

وعندما يقول الحق : « إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » نحن هنا أمام اصطفاءين ، الاصطفاء الأول ورد دون أن تسبقه كلمة « على » والإصطفاء الثانى تسبقه كلمة « على » والمقصود بالإصطفاء الأول هو إبلاغ مريم أن الله ميزها بالإيمان ، والصلاح والخلق الطيب ، ولكن هذا الاصطفاء الأول جاء مجردا عن « على » أى أن هذا الاصطفاء الأول لا يمنع أن يوجد معها فى مجال هذا الإصطفاء آخرون ، بدليل قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

ثم أورد الحق سبحانه أنه طهرها ، وجاء من بعد ذلك بالاصطفاء الثانى المسبوق بـ« على » فقال « واصطفاك على نساء العالمين » إذن فهذا خروج للرجال عن دائرة هذا الاصطفاء ، ولن يكون مجال الاصطفاء موضوعا يتعلق بالرجولة ، فهى مصطفاة على نساء العالمين ، فكأنه لا توجد أنثى فى العالمين تشاركها هذا الاصطفاء . لماذا ؟ لأنهاالوحيدة التى ستلد دون ذكر ، وهذه مسألة لن يشاركها فيها أحد .

وقوله الحق : « واصطفاك على نساء العالمين » هذا القول يجب أن ينبه فى نفسها سؤالا هو : ما الذى تمتاز هى به عن نساء العالمين ؟ إن الذهن ينشغل بهذا الأمر ، وينشغل على أمر من وظيفة الأنثى ، ولنضم هذه إلى قول الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » ونجد أن هذه كلها إيناسات للحدث الذى سيأتى من بعد ذلك ، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها ، فلابد أن يمهد الله له تمهيدا مناسبا حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شىء يخدش العرض أو يخدش الكرامة . « واصطفاك على نساء العالمين » ولنا أن نسأل : ما نتيجة الاصطفاء ؟

لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاجتباء والاختيار ، ويقتضى « مصطفى » بفتح الفاء . ويقتضى « مصطفِى » بكسر الفاء . والمصطفى هو الله ، لكن ما علة الاصطفاء ؟إن الذى يصطفيه الله إنما يصطفيه لمهمة ، وتكون مهمة صعبة . إذن هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه فى الناس . كأن الله قد خصه بالاصطفاء من أجل الناس ومصلحتهم ، سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم لإنسان أم لزمان ليشيع صفاؤه فى كل ما اصطفى عليه . لقد اصطفى الله الكعبة من أجل ماذا ؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة . إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليشيع اصطفاؤها فى كل مكان آخر ، ولذلك قال الحق عن الكعبة :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وإذا اصطفى الحق سبحانه زمانا ، كاصطفائه لرمضان ، فلماذا اصطفاه ؟ ليشيع صفاؤه ، وصفاء ما أنزل فيه فى كل زمان . إذن فاصطفاء الحق للشخص أو للمكان أو للزمان هو لمصلحة بقية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة ، لماذا ؟ لأن أحدا من الخلق ليس ابنا لله ، وليس هناك مكان أولى بمكان عند الله . ولكن الله يصطفى زمانا على زمان ، ومكانا على مكان ، وإنسانا على إنسان ليشيع اصطفاء المُصطفَى فى كل ما اصطفِى عليه . إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفَى ، أو لا يفرحوا به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ، لأنه جاء لمصلحتهم ، والحق سبحانه يقول :

﴿ يَـٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

فكأن ما تقدم من حيثيات الاصطفاء الأول ، والاصطفاء الثانى ، يستحق منها القنوت ، أى العبادة الخالصة الخاضعة الخاشعة . وقد يقول قائل : ولماذا يصطفى

الله واحدا ، ليشيع اصطفاؤه فى الناس ؟ لأن الاصطفاء من الحق لابد أن يبرئه من كل ما يمكن أن يقع فيه نظيره من الاختيارات غير المرضية ، والحق - سبحانه - يريده نموذجا لا يقع منه إلا الخير ، والمثال الكامل على ذلك اصطفاء الحق سبحانه لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وجعله لا يفعل إلا السلوك الطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطينا الرسول القدوة الإيمانية فى ثلاث وعشرين سنة هى مدة الرسالة المحمدية .

والحق يقول لمريم على لسان الملائكة : « يا مريم اقنتى لربك » إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها ، وكلمة « لربك » تعنى التربية ، فكأن الاصطفاءات هى من نعم الله عليك يا مريم ، وتستحق منك القنوت « واسجدى واركعى مع الراكعين » و« اسجدى » أى بالغى فى الخشوع ، والخضوع ، بوضع الجبهة التى هى أشرف شىء فى الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله مع الناس ؟ لا ، إنه الأمر الحق يصدر لمريم « واركعى مع الراكعين » ولا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه فى الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعى مع الراكعين ، فلا يحق لك يا مريم أن تقولى : « لقد أمرنى الله بأمر » أعلى ولن أنفذ الأمر الأدنى »

إن الحق يأمرها أن تكون أيضا فى ركب الراكعين مثلما نقرأ قوله الحق عن الكفار :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة المدثر)

إنهم كفار ، فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ، ولم يكونوا مسلوكين فى سلك من يصلى ، واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله . وهنا يسأل سائل كريم : لماذا قال سبحانه وتعالى فى خطابه لمريم : « يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين » ولم يقل الحق : « مع الراكعات » ؟ هذا هو السؤال .

وإجابة على هذا السؤال نحب أن نمهد تمهيدا بسيطا إلى فلسفة الأسماء فى وضعها على مسمياتها . إن الأسماء ألفاظ من اللغة تعين مسماها . والمسميات مختلفة ، فمنها الجماد ، ومنها النبات ، ومنها الحيوان ، ومنها الأسماء التى تدل على عالم الغيب كالجن ، والملائكة ، وكل ما غيب الله . هذه الأسماء تدل على معانيها .

وهدى الله سبحانه البشر إليها بما علم آدم من الأسماء ، فكيف كان باستطاعة آدم التعبير عن معطيات الأسماء بمسمياتها ؟ إذن لابد أن يوجد لكل شىء اسم حتى نستطيع حين نتفاهم على الشىء أو الكائن بأن نذكر لفظا واحدا موجزا يشير إليه . ولو لم يكن يذكر هذا فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الجبل مثلا ؟ . أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الجبل ويشير إليه ؟ أم يكفى أن يقول له لفظ « جبل » حتى يستحضر السامع فى ذهنه صورة لهذا المسمى ؟

إذن . . ففلسفة تعليم الحق للأسماء لنا أزاحت عنا عبئا كبيرا من صعوبة التفاهم . ولولا ذلك لما استطعنا أن نتفاهم على شىء إلا إذا واجهنا الشىء وأشرنا إليه . فكلمة « جبل » وكلمة « صخر » وغيرها من الكلمات هى أسماء لمسميات . . وعندما أتكلم على سبيل المثال عن أمريكا فإننى لن آخذ السامع إليها وأشير إليه قائلا « إن هذه هى أمريكا » ، لكن كلمة واحدة هى « أمريكا » تعطى السامع معنى للمسمى ، فتلحق الأحكام على مسمياتها . ومادامت المسألة هكذا فلابد من وجود أسماء لمسميات ، هذه الأسماء علمها الله للإنسان حتى يتفاهم بها والإنسان أصله من آدم .

وكلمة « آدم » حينما تتكلم بها تجدها فى النحو مذكرة ، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحق الأعلى : الذكورة والأنوثة ؛ لأن من تزاوجهما سيخرج النسل . إذن فكان لابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد . فالذكر والأنثى ، هما بنو آدم ، ومنهما ينشأ التكاثر ، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم ونطقناه اسما مذكرا وسمى « حواء » ونطقناه اسما مؤنثا ، وجعل سبحانه الاسم الأصيل الذى وجِدَ منه الخلق هو « نفس » . لقد قال الحق :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

﴿ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ۝١ ﴾

(سورة النساء)

لقد سمى الحق آدم بكلمة نفس ، وهى مؤنثة ؛ إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن « التذكير » هو فقط علامة لتضع الأشياء فى مسمياتها الحقيقية وكذلك التأنيث . إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان منا « نفس » وهى كلمة مؤنثة ، وحينما تكلم الحق سبحانه كلاما آخر عن الخلق قال :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝١٣ ﴾

(سورة الحجرات)

وكلمة « ناس » تعني مجموع الإنسان . وهكذا نعرف أن كلمة « إنسان » تُطلق مرة على المذكر ، ومرة أخرى على المؤنث . إذن فالحق قد أورد مرة لفظا مذكرا ، ومرة أخرى أطلق لفظا مؤنثا ، وذلك حتى لا نقول : إن المذكر أفضل وأحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط ، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لنتعارف بها .

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ ﴾

(من الآية ١٣ سورة الحجرات)

ومعنى « لتعارف » أى أن يكون لكل منا اسمٌ يعرف به عند الآخرين . وفى حياتنا العادية ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد رجلا عنده أولاد كثيرون ، لذلك يُطلق على كل ابن اسما ليعرفه المجتمع به ، والعجيب فى هذه الآية الكريمة : « وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » . أننا نجد كلمة « شعوبا » مذكرة وكلمة « قبائل » مؤنثة . إذن فلا تمايز بالأحسن ، ولكن الكلمات هنا مسميات للتعارف . والحق الأعلى يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

(سورة العصر)

إذن فما وضع النساء اللائى آمنّ ؟ إنهن يدخلن ضمن « الذين آمنوا » . ولماذا أدخل الله المؤنث فى المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء منه فرعا . إذن فالمؤنث هو الذى يدخل مع المذكر فى الأمور المشتركة فى الجنس .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ ﴾

(سورة البقرة)

وهذا يعنى أن « المؤنث » عليه أن يدخل فى تكليف العبودية لله .

والمعنى العام يحدد أن المطلوب منه العبادة هو الإنسان كجنس . وبنوعية الذكر والأنثى . وفى الأمر الخاص بالمرأة ، يحدد الله المرأة بذاتيتها . فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ۝٣٦ ﴾

(سورة الأحزاب)

لماذا ؟ إن المسألة هنا تشمل النوعين من الجنس الواحد : الرجل والمرأة ، زوج وزوجة ، فمثلا نجد زوجا يريد تطليق زوجته ، فيأتى الحق بتفصيل يوضح ذلك . وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فها هوذا قوله الحكيم :

﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ

﴿ ... ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

إن كل ما جاء فى الآية السابقة يحدد المهام بالنسبة لنساء النبى صلى الله عليه وسلم ، فالخطاب الموجه يحدد الأمر بدقة « لستن » و« اتقيتن » ، « لا تخضعن » ، و« قرن » ، و« لا تبرجن » . الحديث فى هذه الآية الكريمة يتعلق بالمرأة لذلك يأتى لها بضميرها مؤنثا .

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام فإن الحق يأتى بالأمر شاملا للرجل والمرأة ويكون مذكرا ، ولذلك فعندما قالت النساء لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ، جاء قول الحق :

﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَـٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْقَـٰنِتِينَ وَٱلْقَـٰنِتَـٰتِ وَٱلصَّـٰدِقِينَ وَٱلصَّـٰدِقَـٰتِ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَٱلصَّـٰبِرَٰتِ وَٱلْخَـٰشِعِينَ وَٱلْخَـٰشِعَـٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَـٰتِ وَٱلصَّـٰٓئِمِينَ وَٱلصَّـٰٓئِمَـٰتِ وَٱلْحَـٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَـٰفِظَـٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ ﴾

(سورة الأحزاب)

هكذا حسم الحق الأمر . قال سبحانه تأكيدا لذلك :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ ﴾

(سورة النساء)

إن الذكر والأنثى هنا يدخلان فى وصف واحد هو : « وهو مؤمن » إذن فعندما يأتى الأمر فى المعنى العام الذى يُطلب من الرجل والمرأة فهو يُضمر المرأة فى الرجل

لأنها مبنية على الستر والحجاب ، مطمورة فيه . داخله معه . . فإذا قال الحق سبحانه لمريم : « واركعى مع الراكعين » فالركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول « مع الراكعات » ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الراكعين ، وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وقد قلنا من قبل : إن كلمة « نبأ » ، لا تأتى إلاّ فى الخبر العظيم . والغيب هو ما غاب عن الحس . وهناك « غياب عن الحس » من الممكن أن يدركه مثلك . وهناك غياب عن الحس لا يدركه مثلك . وقلنا من قبل : إن حجب الغيب ثلاثة : مرة يكون الحجاب فى الزمن ماضيا ، ومرة مستقبلا ، ومرة ثالثة يكون الحجاب فى المكان. لماذا ؟ لأن ظروف الأحداث زمان ومكان. فإذا أنبأنى منبىء بخبر مضى زمنه فهذا اختراق للحجاب الزمن الماضى ، فالحدث يكون قد وقع من سنوات وصار ماضيا ، وإذا أخبرنى به الآن فهذا يعنى أنه اخترق حجاب الزمن الماضى ، وإذا قال لى عن أمر سيحدث بعد سنتين من الآن فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل ، وهب أنه أخبرك بنبأ معاصر لزمنك الآن نقول : هنا يوجد حجاب المكان ، فعندما أكون معكم الآن لا أعرف ما الحادث فى مدينة أخرى غير التى نحن بها ، ورغم أن الزمن واحد .

-لذلك فعلينا أن نعرف ، أنه مرة يكون الحجاب حجاب زمان . . أى قد يكون الزمن ماضيا ، أو يكون الزمن مستقبلا ، وقد يكون حجاب مكان . فإذا كان الله ينبىء رسوله بهذا النبأ ، فوسائل علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث ؛ لأن وسيلة العلم بالنبأ أحد ثلاثة أمور : مشاهدة ؛ أو سماع ؛ أو قراءة .

والوسيلة الأولى وهى مشاهدة النبأ يشترط أن يوجد فى زمن هذا النبأ ، والنبأ الذى أخبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول بمالا يقل عن ستة قرون . إذن فالمشاهدة كوسيلة علم بهذا النبأ لا تصلح ، لأن النبأ قد حدث فى الماضى . قد يقول قائل : لعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد قرأها ، أو سمعها وبإقرار خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ليس بقارىء ، فامتنعت هذه الوسيلة أيضا ، وبإقرار خصومة صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فلم يستمع من معلم . إذن فلم يكن من سبيل لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النبأ إلا بالوحى ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وقلنا قديما إن الوحى ، هو إعلام بخفاء ؛ لأن الإعلام العادى هو أن يقول إنسان لإنسان خبراً ما ، أو يقرأ الإنسان الخبر ، أما الإعلام بخفاء فاسمه « وحى » . والوحى يقتضى « موحِى » وهو الله ، « وموحَى إليه » وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، و« موحى به » وهو القرآن الكريم .

وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء لوجدنا له وسائل كثيرة . إن الله يوحى . لكن الموحى إليه يختلف . الله سبحانه وتعالى يوحى للأرض :

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾

(سورة الزلزلة)

إنه إعلام بخفاء ، لأن أحدا منا لم يسمع الله وهو يوحى للأرض ، والحق سبحانه يوحى للنحل ، ويوحى للملائكة ، ويوحى للأنبياء ، وهناك وحى من غير الله ، كوحى الشياطين .

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾

(سورة الأنعام)

وهناك وحى من البشر للبشر :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) ﴾

(سورة الأنعام)

لكن الوحى إذا أطلق ، ينصرف إلى الوحى من الله إلى من اختاره لرسالة ، وما عدا ذلك من أنواع الوحى يسمونه « وحيا لغويا » إنما الوحى الاصطلاحى وحى من الله لرسول ، إذن فوحى الله للأرض ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله للنحل ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله لأم موسى ليس وحيا اصطلاحيا ، ووحى الله للحواريين ليس وحيا اصطلاحيا ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾

(سورة المائدة)

إن هذا لون من الوحى غير اصطلاحى ، بل هو وحى لغوى ، أى أعلمهم بخفاء . لكن الوحى الحقيقى أن يُعلم الله من اختاره لرسالة ، وهذا هو الوحى الذى جاء للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول الحق : « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذا يختصمون » .

هكذا يخبرنا الحق أن الرسول تلقى هذا النبأ بالوحى ، فلم يقرأه ، ولم يشاهده ، ونحن نعرف أن خصوم رسول الله شهدوا أنه لم يقرأ ولم يستمع من معلم . وهكذا يخبرنا الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن موجودا مع قوم مريم حين ألقوا أقلامهم .

راجع أصله وخرّج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر .

والقلم يُطلق على القلم الذى نكتب به ، أو يطلق القلم على القداح التى كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شىء . وكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحا ، ليعْفروا من يظفر بالشىء المختلف عليه ونسميها نحن القرعة ، والقرعة يقومون بإجرائها لإخراج الهوى من قسمة شائعة بين أفراد ، وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو إلى ذاك مفضلا له على الآخرين ، ولذلك فنحن أيضا نجرى القرعة فنضع لكل واحد ورقة .

إذن فلا هوى لأحد فى إجراء قسمة عن طريق القرعة ، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله لأن الورقة لا هوى لها ، ولما اختلف قوم مريم على كفالتها ، واختصموا حول مَن الذى له الحق فى أن يكفلها . هنا أرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة ، وأرادوا أن تكون قدرية ، ويكون القول فيها عن طريق قدح لا هوى له . وهذا القدح سيجرى على وفق المقادير . أما « أقلامهم » فقد تكون هى القداح التى يقتسمون بها القرعة ، أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة تبركا .

وتساءل البعض ، ما المقصود بقول الحق : « إذ يلقون أقلامهم » وأين تم إلقاء هذه الأقلام ؟ قيل : إنها ألقيت فى البحر وإذا ألقيت الأقلام فى البحر فمن الذى يتميز فى ذلك ؟ قيل : إنه إذا ما أطل قلم بسنه إلى أعلى فصاحبه الفائز ، أو إذا غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد يكون صاحبه هو الفائز . ولابد أنهم اتفقوا على علامة أو سمة ما تميز القلم الذى كان لصاحبه فضل كفالة مريم . « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

وكلمة « إذ يختصمون » تدل على حرارة المنافسة بين القوم شوقا إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها دخل فى خصومة ، وحتى تنتهى الخصومة لجئوا إلى الاقتراع بالأقلام .

وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

لقد كانت المرحلة الأولى بالنسبة لإعداد مريم هى قوله الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . وبذلك تعرفت على طلاقة قدرة الله ، والمرحلة الثانية هى سماعها لحكاية زكريا ويحيى وتأكيد الحق لها أنه اصطفاها على نساء العالمين ، وفى ذلك أمر يتعلق بالنساء ، وكان ذلك إيناساً من الحق لها ، وتدخل مريم إلى مرحلة جديدة .

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة آل عمران)

والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح ، وقد يتساءل البعض ؟ ماذا يقصد الحق بقوله : « كلمة منه » ؟ والإجابة هى : أن الحق سبحانه وتعالى يزاول سلطانه فى ملكه بالكلمة ، لا بالعلاج ، فالحق سبحانه علمنا ذلك بقوله :

﴿ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة آل عمران)

وهذا القول هو مجرد إيضاح لنا وتقريب لأنه لا يوجد عندنا أقصر فى الأمر من كلمة « كن » إن قدرته قادرة بطلاقتها أن تسبق نطقنا بالكاف وهى الحرف الأول من « كن » ، ولكن الحق يوضح لنا بأقصر أمر على طريقة البشر ، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمرا - فإنه يقول له كن فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور ، و« كن » هى مجرد إظهار الأمر للخلق ، هكذا نفهم معنى بشارة الحق لمريم بـ « كلمة منه » ويقول الحق : « اسمه المسيح عيسى ابن مريم » . إنها ثلاثة أسماء ، « المسيح » ، « عيسى » ، « ابن مريم » .

ما معنى المسيح ؟ قد يكون الممسوح من الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح المبارك . . أما عيسى . فهذا هو الاسم ، والمسيح هو اللقب ، وابن مريم هي الكنية . . ونحن نعرف أن العَلَمَ فى اللغة العربية يأتى على ثلاثة أنواع : اسم أو لقب أو كنية . وابن مالك يقول : « واسما أتى وكنية ولقبا » إن العَلَم على الشخص له ثلاث حالات . إما اسم وهو ما يطلق على المسمى أولا . والاسم الثانى الذى أطلقناه عليه . إن كان يشعر برفعة صاحبه أو بضِعَتِه نسميه لقبا . أما ما كان فيه أب أو أم فيقال له : « كنية » وجاءت الثلاثة فى عيسى « اسمه المسيح عيسى بن مريم » .

« المسيح » هو اللقب ، « عيسى » هو الاسم » و« ابن مريم » هو الكنية . ومجىء عيسى باللقب والاسم والكنية ستكون لها حكمة تظهر لنا من بعد ذلك . ويقول عنه الحق : « وجيها فى الدنيا والآخرة » .

ونحن فى حياتنا نستعمل كلمة فلان وجيه من وجهاء القوم ، والوجيه هو الذى لا يرده مسئول للكرامة فى وجهه ، ونحن نسمع فى حياتنا اليومية . فلان لا يصح أن نسببْ له الخجل برفض أى طلب له . وكما يقول العامة : (هو الوجه ده حد يكسفه) إذن فالوجيه هو الذى يأخذ سمة وتميزا بحيث يستحى الناس أن يردوه إذا كان طالبا ، وهناك إنسان آخر قد يسألك أو يسأل الناس ، فلا يبالى به أحد ، إنه يريق ماء وجهه وتنتهى المسألة .

إذن فقوله الحق فى وصف عيسى بن مريم : « وجيها فى الدنيا والآخرة » أى أن أحدا لا يرده إن سأله . لكرم وجهه ، فالإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، لذلك نجد ان السائل قد يقول : أعطنى لوجه الله . أى أنه يقول لك : لا تنظر إلى وجهى ، ولكن انظر إلى وجه الله ، لأن الله هو الذى جاء بى إلى الدنيا وخلقنى ، ومادام قد جاء بى الخالق إلى الدنيا فهو المتكفل برزقى ، فأنت حينما تعين على رزق من استدعاه الله إلى الوجود تكون قد أعطيت لوجه الله ، إنه الخالق الذى يرزق كل مخلوق له حتى الكافر .

إذن فعطاء الإنسان للسائل ليس عطاء لوجه السائل ، ولكنه عطاء لوجه الله . والحق يقول عن عيسى بن مريم : « وجيها فى الدنيا والآخرة » وعرفنا كيف يكون

الإنسان وجيها فى الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجاهة عيسى فى الاخرة ؟ وخصوصا أن كل وجوه المؤمنين ستكون ناضرة ، لقد نص الحق على وجاهة عيسى فى الآخرة لأنه سوف يُسأل سؤالا يتعلق بالقمة الإيمانية :

﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦) ﴾

(سورة المائدة)

إياك أن تظن أن هذا السؤال هو تقريع من الله لعيسى بن مريم . لا . إن الحق يريد أن يقرّع من قالوا هذا الكلام . ولذلك يقول عنه الحق :

﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣) ﴾

(سورة مريم)

لأن ميلاده كان له ضجة ، وبعض بنى إسرائيل اتهموا والعياذ بالله أمه مريم البتول ، و« يوم الممات » ، كلنا نعرف حكاية الصلب وكان لها ضجة . إنه لم يصلبْ ولكن صلب من خانه ووشى به فألقى الله شبه عيسى عليه فقتلوه . ويوم البعث حيا يوم يسأله الله :

﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾

(من الآية ١١٦ سورة المائدة)

إنه عيسى ابن مريم الذى أنعم الله عليه بالسلام فى هذه المواقف الثلاثة . ويتابع الحق فيصف عيسى ابن مريم بقوله : « وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن كلمة « من المقربين » تدل على تعالى الحق فى عظمته ، فحين يفتن بعض البشر فى واحد منهم قد يغضب بعضهم من الشخص الذى فتن الآخرون فيه مع أنه ليس له ذنب فى ذلك .

والحق سبحانه يعلمنا أن للمغالى جزاءه ولكن المغالَى فيه تنجيه رحمة الغفار .

إن الحق يعلمنا أن فتنة بعض الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام لا تؤثر فى مكانة عيسى عليه السلام عند الحق ، إنه مقرب من الله ، ولا تؤثر فتنة الآخرين فى مكانته عند الله، ويقول الحق .

﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

الكلام : معناه اللفظ الذى ينقل فكر الناطق إلى السامع ، وقول الحق : « يكلم الناس فى المهد » ، معناه أن المواجه لعيسى عليه السلام فى المهد هم الناس . و« المهد » هو ما أعد كفراش للوليد . ولقد أورد الحق « المهد وكهلا » رمزية لشيء ، وهى أن عيسى ابن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مرة أن يكون فى المهد ، ويطرأ عليه مرة أخرى أن يكون كهلا ، ومادام فى عالم الأغيار فلا يصح أن يفتتن به أحد ليقول إنه « إله » أو « ابن إله » .

ونفهم أيضا من « ويكلم الناس فى المهد » سر وجود آية المعجزة التى وهبها له الله وهو طفل فى المهد . لأن المسألة تعلقت بعرض أمه وكرامتها وعفتها ، فكان من الواجب أن تأتى آية لتمحو عجبا من الناس حين يرونها تلد بدون أب لهذا الوليد أو زواج لها . وهذه المسألة لم نجد لها وجودا . مع أنها مسألة كان يجب أن تقال لأنهم يمجدون نبيهم ، وكان من الواجب ألا يغفلوا عن هذه العجيبة ، إن كلام طفل فى المهد لما كان أمرا عجيبا كان لابد أنه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس ، ولن يكتفى الناس برواية واقعة كلامه فى المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ، ويرددون قوله .

والكلمة التى قالها عيسى عليه السلام فى المهد لا تسعف من يصف عيسى عليه السلام بوصف يناقض بشريته ، لأن الكلمة التى نطق بها أول ما نطق : إنى عبدالله ، فأخفوا هم هذه المسألة كلها لأن هذه الكلمة تنقض القضية التى يريدون